

المقدمة

من لا يقرأ تاريخ مصر الاجتماعى والسياسى لا يعرف شيئاً عن المصريين، بل ويحار فى أمرهم؛ إذ غالباً ما يتصور أنهم من الشعوب المستكينة التى يرضيها القليل وتخضع لكل مستعمر، بل ترحب به وتصنعه مستبدًا عليها. وكم كتب الكاتبون عن خضوع المصريين للفرس ثم اليونانيين فى الأزمنة القديمة. وكم كتبوا عن خداع الإسكندر لهم بحجة أنه ابن آمون وزيارته لمعبده فى سيوة! وكم كتبوا عن خضوعهم من بعد الإسكندر للبطالمة ورضائهم بحكم امرأة منهم هى كليوباترا.. تلك الفاتنة الماجنة!

وهاهم بعد هؤلاء وأولئك يرحبون بعمر بن العاص ويسارعون إلى دخول الإسلام بعد أن كانت الإسكندرية وكنيستها هى الرائدة فى الدعوة إلى الإيمان بالمسيحية والتأسيس العقائدى لها!

ولم ينقطع ذلك السيل الاستعمارى الذى يقابله المصريون طوال تاريخهم بكل الود والترحاب فى العصر الحديث؛ فقد استقبلوا الاستعمار الفرنسى ولم يمنعوا نابليون من دخول الأزهر وخضعوا لحيله وألعيبه، بل زوجوا قواده من بناتهم الفضليات! وبعد ذلك استقبلوا الاستعمار الإنجليزى وتعايشوا معه نحو سبعين عامًا كاملة. وولوا محمد على حكم مصر باختيارهم وإجماعهم الذى عبر عنه زعيمهم عمر مكرم، ولم يكن محمد على إلا أحد الجنود الأتراك المستعمرين، وتوالى حكم الأسرة العلوية ملكًا بعد ملك وسلطانًا بعد أمير حتى قامت الثورة المصرية التى استخلصت الحكم للمصريين من محمد نجيب إلى جمال عبد الناصر، ومنهما إلى السادات ومبارك.. لقد تخلصوا من براثن الاحتلال التركى والإنجليزى ليقعوا فى قبضة الاستبداد فى الحقبة الناصرية ثم فى قبضة حيتان الانفتاح فى عصر السادات وعصر مبارك. لقد حرم هؤلاء الحكام مصر من الكفاءات وأفسدوا نظامها التعليمى والتربوى، كما استولوا على ثروتها حتى أفقروا الشعب المصرى الصابر المستكين!!

والمصيبة أن هذا التصور الخاطئ الذى عادة ما يرسمه المؤرخون والمستشرقون عن مصر والمصريين هو السائد رغم أنه لا يمثل جوهر الحقيقة ولا يدرك الطبيعة الحقيقية للشخصية

المصرية ولا يفهم الجوهر الأصيل للشعب المصرى الذى إن صبر وتحمل فهو لم يفقد بعد شجاعته وكرامته، وإن تسامح وغفر فهو لا ينسى من أساءوا إليه وسرعان ما يرد الإساءة. إن الشعب المصرى لم يتربى على الاستبداد والخضوع للغزاة والمستعمرين كما هو شائع فى ذلك الفهم المتسرع لطبيعة الشخصية المصرية؛ بل هو الشعب الذى يبني الحضارة ويصنع المستحيلات طوال تاريخه، وهو لم يكن ذلك الشعب الخاضع المستكين دوما لحكامه وخاصة المستبدين والمستعمرين الأجانب منهم. فهو الشعب الذى قام بأول ثورة فى التاريخ الإنسانى كله فى عام ألفين قبل الميلاد تقريباً وعبرت عن هذه الثورة العارمة فى مصر القديمة برديات إيبوور، وهو الشعب الذى واجه كل هذا التاريخ الاستعمارى بأقصى درجات الصبر والتحمل لأنه لم يكن يملك القوة العسكرية الكافية للردع والنصر على الأعداء، فكان أن تحمل كل هذه الموجات الاستعمارية وكثيرا ما ثار عليها جميعاً فى ثورات متتالية لكن لم تكن تنجح للسبب نفسه، ضعف إمكانيات الشعب بالقياس إلى القدرات الهائلة التى كان يملكها المحتل.

إنه الشعب الذى حول مستعمره إلى مواطنين؛ فحينما لم تكن تنجح المواجهة المسلحة، كان البديل هو تمصير المحتل وجعله مصرياً يحب المصريين ويأنس إليهم ويعمل لمصلحتهم حتى يمكنه الاستمرار فى السلطة بهدوء. وكما كان الشعب المصرى رائعاً حينما نجح فى النهاية فى الحفاظ على هويته الحضارية وعلى لغته العربية رغم طول فترات الاستعمار وقوة المستعمرين لقد ظل الشعب المصرى حريصاً على الحفاظ على دولته المصرية قوية مستقرة طوال التاريخ رغم فترات الضعف والاستعمار، ورغم فترات الجمود التى فرضت عليه فرضاً، ورغم الفترات التى أوقف فيها نموه الذاتى لمصلحة المستعمر.

إن الشعب المصرى الذى ثار على مبارك لطول فترة حكمه من ناحيته، ولأنه وحزبه لم يرحموا المصريين واستبدوا بهم وبددوا ثرواتهم بالاستيلاء عليها تارة وبالتفريط فى استخدامهما فى بناء عوامل القوة الذاتية لمصر تارة أخرى، ومع ذلك وفى ثناياه أوقفوا حركة المجتمع المصرى وقضوا على إمكانية مشاركة جيلين أو ثلاثة من الأجيال الشابة فى العمل العام حيث تفتشت البطالة بين الشباب المتعلم وحرموا من الترقى والتقدم فى الوظائف العامة.

تلك كانت بعض أسباب ثورة الشباب والشعب المصرى الذى ثار على مبارك ونظام حكمه^(١)، وهذا ما عبرنا عنه فى كتابنا السابق «ثورة الشباب والجمهورية الثانية»، ولما حدث أن استولى على الحكم عقب هذه الثورة تيار الإسلام السياسى بزعامة «الإخوان المسلمين» وأخذوا فى التجبر على الناس بدءاً من الإعلان الدستورى الذى أخذ به الرئيس المعزول محمد مرسى كل السلطات فى يده وحتى محاولته أخونة الدولة بكل هيئاتها ووظائفها العليا، بدأت بذور الثورة وفاعلياتها على حكم الإخوان وهيمنة المرشد وحاشيته على الرئيس وأجهزة الدولة.

لقد كانت الثورة الثانية التى حدثت فى الثلاثين من يونيو ضرورية لتصحيح الأوضاع وإعادة مصر ومسارها على الطريق الصحيح، حيث إن مصر وشعبها لم يعرفا طوال التاريخ حكم التطرف، ولا يمكن أن يرضخا لحكم طائفة من الشعب تريد أن تنمطه على نمطها وتقولبه فى صورتها الضيق عن الإسلام، ذلك التصور البعيد عن الاعتدال والوسطية، البعيد عن المشاركة الفاعلة بين طوائف الشعب المختلفة مسلمين كانوا أو مسيحيين، فالتعايش والمشاركة والتعاون والمحبة هى قيم المواطنة الحقيقية فى مصر منذ أن عرفت المسيحية والإسلام. والنسيج الوطنى الأصيل لا يفرق بين الناس إلا على أساس طبقاتهم الاجتماعية أو انتماءاتهم السياسية أو جغرافية المكان الذى يعيشون فيه، هل فى صعيد مصر أم فى شمالها أم فى شرقها أم فى غربها! ولم يفرق يوماً على أساس دينى أو عرقى، فما بالنا وقد تقاتل المسلمون سنة وشيعة وقتل متطرفو الإسلام السياسى السنّى بعض الشيعة، وما بالنا بتقسيم المسلمين إلى عامة وإخوان؛ فالإخوانى والمنتمى إلى أية جماعة إسلامية هو وحده المسلم الحق أما الباقون فهم خارج الملة وينظر إليهم من قبل هذه الجماعات نظرة دونية وكأنهم لم يهتدوا بعد إلى الإسلام!.

إن ثورة الشعب العارمة فى الثلاثين من يونيو كانت ثورة على التمييز والتعصب، ثورة على ديكتاتورية بغيضة تحكم باسم الدين ولا تعرف سوى تقاليد الجماعة الدينية، ثورة على أناس تصوروا أنهم قد خطفوا الدولة وشعبها فى لحظة تاريخية لن تتكرر فحاولوا الإمساك بهذه اللحظة وتوقيف التاريخ عندها!.

(١) يمكن للقارئ الكريم أن يقرأ تفاصيل أكثر عن ثورة ٢٥ يناير وتحليلنا عبر المقالات والدراسات التى كتبناها عن أسبابها وفاعلياتها ونتائجها فى كتابنا: «ثورة الشباب والجمهورية الثانية» - «ثورة ٢٥ يناير»: المبشرات والنتائج.

إن ثورة يونيه هي الثورة الشعبية العارمة على هذه الجماعة الدينية الخارجة على إجماع المصريين وعلى التدين المعتدل والتعايش السلمى ، إنها ثورة أعادت مصر إلى وسطيتها واعتدالها بقيادة واعية أدركت منذ اللحظة الأولى أن الحق أحق أن يتبع وأن الانحياز الشعب من قبل جيشه وقادة جيشه واجبة ، لقد أدرك قائد الجيش وجنوده أن الانحياز إلى الشعب هو دائما الخيار الأول الذى درج عليه جيشنا الباسل منذ فجر التاريخ المصرى . لقد كان الالتحام بين الشعب وجيشه التحاماً تاريخياً وخاصة فى هذه الثورة الثانية ، ثورة الثلاثين من يونيه ، وقد كانت وحدة النسيج الوطنى فى قمتها لأن الشرطة شاركت الجيش الالتحام بالشعب وأصبح الشعب بجيشه وشرطته فى مواجهة إرهاب الجماعة واعتصاماتها وتهديداتها حتى تحقق النصر النهائى للشعب ووضع الدستور الجديد وانتخب الرئيس الجديد ، وعاد المسجونون إلى السجن مرة أخرى لأنهم لم يتحملوا التطهر مع الشعب الذى أراد أن يتطهر بهم ومعهم فإذا به يجدهم يريدون تطهير الوطن من ناسه الحقيقيين ليأتوا بأناس غيرهم وكأنهم أرادوا أن يستبدلوا شعباً بشعب وحكاماً بحكام . لقد ضلوا طريق الوطنية المصرية فكان لزاما على الشعب أن يلفظهم إلى الأبد . وما أقدم هذه المهمة الثورية إذا كان هدفها إعادة مصر إلى المصريين الحقيقيين . وما أقدم هذه الثورة التى كشفت الوجه القبيح لمن تصورناهم ملائكة فصاروا بعد الاستيلاء على الحكم عقب الثورة الأولى شياطين يريدون إحراق الأخضر واليابس فى سبيل الوصول إلى سدة الحكم مرة أخرى ؛ لقد ضلوا الطريق وأعماهم الطمع عن أن يعيدوا التفكير فى مهادنة الشعب والعودة مرة أخرى إلى صفوفه . إن أحدا لا يستطيع تحدى إرادة الشعب مهما تزيا بزى الدين ، ومهما تلون بألوان الطيف تمسحاً وتزلفاً بعد أن اكتشفت كل الحقائق وعرف الناس حقيقة من سمو أنفسهم بالإخوان وبالمسلمين فلم يصيروا إخواناً لأبناء هذا الشعب ، ولم يصبحوا يمثلون الإسلام لديه ، فما أحوجهم فى هذه اللحظة لأن يعيدوا التفكير مرة ومرات قبل أن يجرفهم تيار التاريخ كأى جماعة متطرفة عرفها التاريخ العربى أو الإسلامى ؛ فأين ذهب الخوارج والمرجئة؟ وأين ذهبت جماعات الإرهاب السياسى باسم الإسلام طوال التاريخ الإسلامى؟!

إن كل جماعات التطرف فانية وجموع الشعب المعتدل ، المؤمن ، الفطن ، العامل ، الصانع ، الزراع ، هى الباقية وهى التى ستصنع نهضة هذا الوطن بعد أن تحقق لها الاستقرار وكادت تكتمل مؤسسات الدولة الدستورية ؛ إذ لم يبق سوى الانتخابات البرلمانية

لتصبح مصر على الطريق الدائم للاستقرار وإعادة بناء الدولة القوية الرائدة، حامية العروبة والإسلام، المدافعة عن عزة وكرامة العرب والمسلمين كافة.

إن طريق النهضة يبدأ بالاستقرار وعنوانه الجديدة فى العمل وسرعة الإنجاز عبر خطط ممكنة التنفيذ يضعها العلماء المتخصصون ويسهر على تنفيذها أناس يخشون الله ورسوله ويعملون بجد ونشاط مخلصين لهذا الوطن الذى انتظرهم كثيراً.

وإنى أكاد ألمح فى وجوه قادة اليوم والغد، المستقبل الواعد المشرق لهذا الوطن. أكاد ألمح أننا إذا ما سرنا على هدى العقل والعلم مع سرعة الإنجاز وإتقان العمل سنصل إلى ذرى التقدم فى سنوات قليلة، فمصر تملك كل مقومات القوة (البشر - الموارد - الإبداع) وكل مقومات الشراكة مع الآخرين فى صنع التقدم والازدهار للجميع (العرب - أوروبا - الشرق الآسيوى - العمق الإفريقى)، كما تملك الموقع الفريد وقناة السويس القديمة والجديدة خلال هذا العام إن شاء الله، إنها أصبحت تمتلك كل هذا مع الإدارة السياسية الواعية والقادرة على التخطيط وسرعة الإنجاز.

إذن لم يعد ينقصنا إلا توفيق الله، وهو سيوفقنا إن شاء الله إلى صنع التقدم على هذه الأرض الطيبة المعطاءة. ومع توفيق الله يكون الكل فى واحد والواحد مع الكل لتتحد إرادة الشعب مع إرادة القائد لصنع ملحمة النهضة والتقدم فى كل مجالات الحياة بالعلم والعمل.

وإذا كان على كل امرئ أن يبدأ بنفسه وبإيقاظ ذاته ليقدم ما يستطيع فى صنع هذه الملحمة الوطنية. فهذا أقدام بعض لمحاح من معالم الطريق إلى الخروج من عباءة الثورة الطاهرة إلى تحقيق الإنجاز الذى تمثله نهضتنا المنشودة عبر علم نافع وعمل جاد، عبر تعليم يستهدف بناء المواطن القادر وعبر توظيف كل الطاقات المبدعة والعاملة لخدمة هذه الأهداف التى حددناها لثورتينا المباركتين.

لقد قدمت قبل ذلك فى كتاب «الأورجانون العربى للمستقبل» الظهير الفلسفى والفكرى البراجماتى لخططنا نحو المستقبل بإزالة عوائق النهضة العشرة، وإقامة ركائز النهوض الخمسة بدلا منها^(١). وفى هذا الكتاب نعيد الكرة من أرض الواقع حيث كانت الثورة بموجتيها هى الشرارة التى لا بد أن تدفعنا إلى إعادة البناء والنهوض. وهذا هو موضوع مقالاتنا وحواراتنا ودراساتنا بين دفتى هذا الكتاب الذى بين يديك عزيزى القارئ الحبيب،

(١) راجع تفاصيل ذلك فى هذا الكتاب المشار إليه: الأورجانون العربى للمستقبل، طبعة الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة ٢٠١٤م.

إنى أحبك فى الوطن، أحبك حينما تشاركنى ليس فقط الحكم بوطن يستحق أن نعيش فيه، بل تشاركنى أيضاً العمل لنجعل هذا الحلم حقيقية واقعة نفاخر بها العالم أجمع. إن مصرنا الغالية تمثل بالنسبة للعالم كله التاريخ والحضارة العريقة، وكم أود أن نتشارك معاً لنجعلها الآن بالنسبة للعالم كله أيضاً رائدة للبناء الحضارى المتميز فى عالم القرن الواحد والعشرين.

وإن كان مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة، فقد بدأت معى هذه الخطوة بأن وعينا دورنا الحضارى الجديد، إذ لم يعد يكفينا الحلم، بل علينا معاً قيادةً وشعباً أن نصر على تمويل الحلم إلى حقيقة تبهر العالم؛ فكما بهرناه بثورتين عظيمتين فى غضون عامين ونصف، يمكننا أن نبهره فى غضون عامين جديدين أننا بدأنا طريق التقدم الحضارى بخطى واثقة وبعزيمة لا تلين.

وفقنا الله معاً، كُتاباً وقُراءً، حكومة وشعباً، شباباً وشيوخاً، رجالاً ونساءً، حاكماً ومحكومين إلى ما فيه خير هذا الوطن ورفعته....

وإلى مستقبل عظيم بإذن الله وتوفيقه....

وتحيا مصر....

د. مصطفى النشار

مدينة نصر فى الثالث من ديسمبر ٢٠١٤م

الموافق الحادى عشر من صفر ١٤٣٦هـ